المتن

فنقول لهم نفيكم لما نفيتموه بحجة أن العقل لايدلُ عليه يمكن إثباته بالطريق العقلي الذي أثبتم به ما أثبتموه كما هو ثابتٌ بالدليل السمعي.

الشرح

مثال ذلك أنهم أثبتوا صفة الإرادة ونفوا صفة الرحمة. أثبتوا صفة الإرادة لدلالة السمع والعقل عليها.

أما السمع فمنه قوله تعالى:"ولكنَّ اللهَ يفعلُ مايُريدُ"[البقرة:253].

أما العقل فإن اختلافَ المخلوقاتِ وتخصيصَ بعضها بما يختصُ به من ذاتٍ أووصفٍ دليلٌ على الإرادة.صح ؟ التخصيص يدل على الإرادة...تغيير الأشياء يدل على الإرادة ؛الشمس والقمر والسماء والأرض والجمل والبقرة وما أشبهُ ذلك ؛هذا التنوع يدل على الإرادة إرادَة اللهُ أن يكون هذا جملاً فصار جملاً, هذه بقرة صارت بقرة و هذه سماء فصارت سماءً وهكذا يدل على الإرادة.

ونفوا الرحمة قالوا لأنها تستلزمُ لينَ الراحم ورقته للمرحوم.وهذا مُحالٌ في حقِ الله تعالى وأوَّلوا الأدلة السمعية المُثبِتة للرحمةِ إلى الفعل أو إرادة الفعل ففسروا"الرحيم" بالمُنعِم أو مُريد الإنعام.

المتن

فنقول لهم: الرحمة ثابتة لله تعالى بالأدلة السمعية، وأدلة ثبوتها أكثر عدداً وتنوعاً من أدلة

الإرادة. فقد وردت بالاسم مثل: "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"[الفاتحة:3] والصفة مثل"وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ"[الكهف :58] والفعل مثل"وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ."[العنكبوت:21]

ويمكن إثباتها بالعقل فإن النعم التي تترى على العباد من كل وجه، والنقم التي تدفع عنهم في كل حين دالة على ثبوت الرحمة لله - عز وجل - ودلالتها على ذلك أبين وأجلى من دلالة التخصيص على الإرادة، لظهور ذلك للخاصة والعامة، بخلاف دلالة التخصيص على الإرادة، فإنه لا يظهر إلا لأفراد من الناس.

وأما نفيها بحجة أنها تستلزم اللين والرقة؛ فجوابه: أن هذه الحجة لو كانت مستقيمة لأمكن نفي الإرادة بمثلها فيقال: الإرادة ميل المريد إلى ما يرجو به حصول منفعة أو دفع مضرة، وهذا يستلزم الحاجة، والله تعالى منزه عن ذلك.

فإن أجيب: بأن هذه إرادة المخلوق أمكن الجواب بمثله في الرحمة بأن الرحمة المستلزمة للنقص هي رحمة المخلوق.

وبهذا تبين بطلان مذهب أهل التعطيل سواء كانت تعطيلاً عامًا أو خاصاً.وبه علم أن طريق الأشاعرة والماتريدية في أسماء وصفاته وما احتجوا به لذلك لا تندفع به شبه المعتزلة والجهمية وذلك من وجهين.

الشرح

كنا بصدد الرد على أهل التعطيل الذين اعتمدوا في إثبات الصفات ونفيها على العقل وبيَّنا أن هذا خطأ من عدة وجوهٍ ثم ردنا عليهم بأن نقول:

*أولاً:اعتمادكم على العقل اعتمادٌ باطلٌ لأنها طريقة لم يكن عليها السلف.

*ثانيًا:ولأنها طريقة متناقضة فإن أصحابَ العقولِ كُلُ واحدٍ منهم يدَّعي أن العقل يوجب هذا الشيء والآخريقول العقل يمنعه على طرفي نقيض والأخر يقول إن العقلَ يُجوزُهُ إذن إلى أيِّ عقلٍ نرجع؟كما قال الإمامُ مالك-رحمه الله-: ياليتَ شِعري بأيِّ عقلٍ يوُزنُ عليه الكتابُ والسُنة حُتى نقول هذا دلَّ عليهِ العقلُ وهذا لم يدلْ عليه العقل.

*ثالثًا:أن اعتماد هذه الطريقة يستلزم رد ماجاءت به النصوص من صفات الله ولاشك أنَّ ردَ ماجاءت به النصوص من صفات الله باطلٌ وما استلزم الباطل فهوَ باطلٌ.

*رابعًا:نقول لهم:إذا قلتم مثلاً إن هذه الصفة لايدل عليها العقل قلنا لكم:إن انتفاءَ الدليلِ المُعينِّ لايستلزم انتفاء المدلول.فإذا قلتَ: إن العقل لم يدل عليها فقد دلَّ عليها السمع فوجبَ إثباتها.

ولهذا إذا قال قائلٌ:إن الوضوءَ من لحم الإبل لاينتقِض لأن الإجماع لايدل عليه؟ ماذانقولُ له؟ نقول له: لكن دلَّ عليه السمع فوجب القولُ به.

*خامسًا:نقول:إن العقلَ دلَّ على مانفيتموه.يعني أنه يُمكن أن تستدل بعقل على مانفيتموه بالعقل كيف ذلك؟ نقول: مثلاً الرحمة ادَّعوا أن العقلَ لايدلُ عليها بل ادعوا أن العقل يدلُ على أن الله لايوصَفُ بها.ليش؟ قالوا: لأن الرحمة لِينٌ وعطفٌ ورقةٌ وهذا لا يُناسب مقام الربوبية ومقام السلطان فيجب أن يُنفى. ماذا نقولُ لهم؟ نقول: أولاً إن الرحمةَ واللين والعطف وما أشبه ذلك هل هي صفاتُ كمالٍ ولاصفات نقصٍ؟ هي في موضعها صفاتُ كمالٍ. قال اللهُ تعالى:"فبما رحمةٍ من اللهِ لِنتَ لهم ولو كُنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضوا من حولك"[ال عمران:159] .وإذا كانت في غيرِ موضعها فلاشك أنها صفة نُقصٍ للرب-عزوجل-

إذا قلنا إن الرحمة تستلزم ماذكرتم في المخلوق فإنه لايلزم أن تستلزمه في الخالق فيكونُ لهُ رحمة تخصه؛ ولذلك لو كان مَلِكاً ذا سُلطانٍ قويٍ وقدرةٍ تامةٍ فقَدِمَ إليه رجلٌ ضعيفٌ فرَحِمَهُ ورق له وعفا عنه؛ هل نقول:إن هذه صفة نُقصٍ في هذا السلطان ؟لأ؛ بل نقول هذه صفة كمالٍ ودليلٌ على كمالِ سُلطانهِ؛ حيثُ كان يُنزلُ الأشياءَ منازلها ويُعاملها بما تقتضيه حالُها.

ونقول: أوّلوا الأدلة السمعية.وأما العقل فإن اختلاف المخلوقات وتخصيص بعضها بما يختصُ به من ذاتٍ أو وصفٍ دليلٌ على الإرادة ونفوا الرحمة قالوا لأنها تستلزمُ لين الراحم ورقته للمرحوم وهذا مُحالٌ في حق الله.

وأولوا الأدلة السمعية المُثبتة للرحمة إلى الفعل أو إرادة الفعل ففسروا الرحيم بالمنعم أو مريد الإحسان . فنقول لهم:الرحمة ثابتة لله تعالى بالأدلةِ السمعيةِ ولالأ؟ فيه أدلة سمعية تدل على صفة الرحمة؟نعم أدَلُّها "بسم الله الرحمن الرحيم" وأدلة ثبوتها أكثرُ عدداً وتنوعًا من أدلة الإرادة صح؟ يعني لو أحصيت صفة الرحمة الواردة في القرآن الكريم وصفة الإرادة؛ لوجدت أن صفة الرحمة أكثر بكثير من صفة الإرادة ؛وأيضًا أكثر تنوعًا من صفة الإرادة. الإرادة وردت بصفة الفعل"قل مَنْ ذا الذي يعصِمُكم من الله إن أرادَ بكم سوءً أو أرادَ بكم رحمة"[الأحزاب:17],"ولكنَّ اللهَ يفعلُ مايُريد"[البقرة:253] ولكن هل جاءت باسم فاعل؟ لأ. جاءت بالمصدر؟لأ. أما الرحمة فقد وردت بالاسم مثل"الرحمن الرحيم"هذا اسمٌ ووردت بالصفة "وربُكَ الغفورُ ذو الرحمةِ"[الكهف:58] ووردت بالفعل "ويرحَمُ مَنْ يشاء" فصارت أكثر تنوعاً من صفة الإرادة.